أحاديث إصلاح القلوب

(١٦)

أصول الإيمان

تقدَّم حديث عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ذكر مجيء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النَّبِيِّ ﷺ بسؤالات أراد بها تعليم النَّاس دينهم ومن هذه السُّؤالات قوله: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

فجعل النَّبِيُّ ﷺ الإيمان مبنيًّا على هذه الأصول السِّتَّة العظيمة الَّتِي محلُّها القلب، وتُعَدُّ أسسًا متينة يقوم عليه صلاحه، بل لا صلاح للقلوب إلَّا بها.

وأصل هذه الأصول وأعظمها هو الإيمان بوحدانيَّة الله في ربوبيَّته وفي أسمائه وصفاته وفي ألوهيَّته، فيؤمن العبد بربوبيَّته بأن يعتقد اعتقادًا جازمًا لا يخالطه أدنى شكٍّ ولا ريب أنَّ الله وحده هو الخالق الرَّازق المنعِم المُتَصَرِّف المُدَبِّر لشؤون خلقه كلِّها، ويؤمن بأسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسُّنَّة، قائلًا: «آمَنَّا بِاللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللهِ عَلَى مُرَادِ اللهِ، وَآمَنَّا

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٠)، ومسلم (٨) واللَّفظ له.

بِرَسُولِ اللهِ وَبِمَا جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ عَلَى مُرَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»[١]، لا يطلب إمامًا غير الكتاب والسُّنَّة، ولا يتخطاهما إلى غيرهما ولا يحيد عمَّا جاء فيهما، ينطق بما نطقا به ويسكت عمَّا سكتا عنه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَصِفُ اللهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ نَبِيُّهُ ﷺ لَا نَتَجَاوَزُ القُرْآنَ وَالْحَدِيثَ»[٢]، وكما قال الإمام الزُّهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِنَ اللهِ الرِّسَالَةُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التَّسْلِيمُ»[٣]. فإذا أَخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن نفسه باسم أو صفة أو فعل أو غير ذلك آمن به وصدق دون تشبيه لله جَلَّوَعَلَا بخلقه ودون تعطيل أو تحريف أو تأويل، ويفردُ الله وحده بجميع أنواع العبادة فلا يصرف شيئًا منها لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكما أنَّه لا خالق غيره؛ فلا معبود حقٌّ حقيق بالعبادة سواه، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، وكُلَّما عظم حظُّ العبد من هذا الإيمان طاب قلبه وصلح.

ومن أصول الإيمان العظيمة الإيمان بالملائكة:

بأن يُقِرَّ ويعتقد بكُلِّ ما جاء عنهم في كتاب الله وفي سُنَّة رسول الله ﷺ من

---

(١) ذكره أبو زكريَّا السلماسي في منازل الأئمَّة الأربعة (ص١٤٦) عن الشَّافعيِّ.

(٢) ذكره الذَّهبيُّ في كتاب العرش (١/ ٣١).

(٣) رواه البخاريُّ تعليقًا في بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَاتِهِ﴾.

أسمائهم وأعمالهم وأوصافهم وأعدادهم، ولا يعلم عددهم إلَّا الله سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]. وممَّا يُبيِّن كثرتهم ما جاء في حديث الإسراء قال ﷺ: «**رُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِمْ**»(١)، وقولُ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»(٢)، وممَّا يُبيِّن عظم خلقهم ما جاء عن النَّبِيِّ ﷺ أنَّه قال: «**أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ**»(٣)، وقد رأى النَّبِيُّ ﷺ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد سدَّ الأفق وله ستُّمائة جناح. ثمَّ هم مع عظمهم وكبرهم وقوَّتهم؛ فإنَّهم إذا تكلَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالوحي خرُّوا صاعقين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٣]. فهذا يُبيِّن حالهم مع الله وطاعتَهم له وانقيادهم لأمره وخضوعهم له، وأنَّهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ومن أصول الإيمان الإيمان بالأنبياء:

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٢٣١٢)، وحسَّنه الألبانيُّ.

(٣) رواه أبو داود (٤٧٢٧)، وصحَّحه الألبانيُّ.

وهم كثيرون، منهم مَن قصَّ الله خبره في القرآن الكريم، ومنهم مَن لم يقصص خبره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر:٧٨]. وعدد الأنبياء الَّذِين ذكرت أسماؤهم في القرآن خمسٌ وعشرون بين رسول ونبيٍّ.

وقد بعث الله في كلِّ أُمَّة من الأمم رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النَّحل:٣٦]. وجميعهم صادقون مَصْدُوقُون، بارُّون صالحون، هادون مهتدون، نصحاء أمناء، قال تعالى بعد أن ذكر طائفة كبيرة من الأنبياء والرُّسل: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٧]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس:٥٢].

وقد جاءوا بالحقِّ والعدل قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

ودعوتهم واحدة الدَّعوةُ إلى توحيد الله قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقد بلَّغُوا البلاغ المبين، قال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن:٢٨].

وأفضلهم هو محمَّد ﷺ سيِّد ولد آدم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وشريعته ناسخة لشرائعهم، وهي الخاتمة للشَّرائع السَّماويَّة، نؤمن به وننقاد لأوامره ونخضع لشرعه وننتهي عن نواهيه ونشهد أنَّه رسول الله حقًّا وصدقًا، أرسله بين يدي السَّاعة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فهدى بنوره من الضَّلالة وبصَّر به من العمى وأرشد به من الغَيِّ، وفتح به أعينا عميًا وآذانا صمًّا وقلوبًا غلفًا ﷺ.

ثمَّ الإيمان بالكتب: بأن يؤمن بكُلِّ كتاب أنزله الله، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشُّورى:١٥]. وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النِّساء:١٣٦]، فيؤمن بكلِّ كتاب أنزله الله إجمالًا فيما أجمل وتفصيلًا فيما فصَّل، فقد سمَّى الله تعالى من كتبه: التَّوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزَّبور على داود. في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [النِّساء: ١٦٣]، والقرآن على محمَّد ﷺ، وذكر صحف إبراهيم وموسى.

ومعنى الإيمان بها التَّصديق الجازم بأنَّها كلَّها مُنَزَّلة من عند الله عَزَّوَجَلَّ

على رسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى عباده بالحقِّ والهدى، وأنَّها كلام الله عَزَّوَجَلَّ تكلَّم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الَّذِي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرَّسول الملكيُّ ويأمره بتبليغه منه إلى الرَّسول البشريِّ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشُّورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النِّساء:١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والتَّصديق بكُلِّ ما فيها من الشَّرائع، وأنَّه كان واجبًا على الأمم الَّذِين نزلت إليهم تلك الكتب؛ الانقيادُ لها والحكم بما فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة:٤٤].

وأنَّها يُصَدِّق بعضها بعضًا، كما قال تعالى في الإنجيل: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة: ٤٦]، وقال في القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

ثمَّ الإيمان بالقرآن العظيم إيمانًا خاصًّا: وهو كتاب الله الَّذِي أنزله على نبيِّنا محمَّد ﷺ مُصَدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، وهو آخر

الكتب المُنَزَّلة وأجلُّها وأشرفها وأكملها، وهو النَّاسخ لما قبله من الكتب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: مهيمنًا مؤتمنًا وشاهدًا على ما قبله من الكتب ومُصَدِّقًا لها، فيُصَدِّق: ما فيها من الصَّحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، ويحكم عليها بالنَّسخ أو التَّقرير، ولهذا يخضع له كلُّ متمسِّك بالكتب المُتَقَدِّمة ممَّن لم ينقلب على عقبيه، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٢-٥٣].

ثمَّ الإيمان باليوم الآخر: وهو الإيمان بكلِّ ما أخبر الله به ممَّا يكون بعد الموت، من حين دخول الإنسان قبره، والقبر هو أوَّل منازل الآخرة إلى افتراق النَّاس إلى فريقين فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير، فيؤمن بفتنة القبر وعذابه ونعيمه ونزول الملكين في القبر وسؤال مَن في القبر عن ربِّه ودينه ونبيِّه ﷺ، ثمَّ النَّفخ في الصُّور، والبعث والنُّشور، وحشر النَّاس، ومجيء الله للقضاء، ونصب الموازين، ونشر الدَّواوين فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله، وتتطاير الصُّحف، والصِّراط الَّذِي يُنصب على متن جهنَّم، وبجهنَّم وما فيها من صنوف العذاب، وبالجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، وأنَّ الجنَّة والنَّار باقيتان لا تفنيان، ورؤية المؤمنين ربَّهم سبحانه في الجنَّة، وهذا أكمل

النَّعيم وأعلاها.

ثمَّ الإيمان بالقدر: بأن يؤمن العبد بأنَّ الله سبق في علمه وجود الكائنات وما يعمله العباد من خير وشرٍّ، وكتب كلَّ ذلك في اللَّوح المحفوظ، وأنَّ وجود أيِّ شيء من ذلك إنَّما يكون بمشيئته، وأنَّه سبحانه الخالق لكلِّ شيء. وعليه فالإيمان بالقدر لا يكون إلَّا بالإتيان بمراتب القدر، **وهي أربع مراتب:**

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الأزلي، وأنَّه أحاط بكُلِّ شيء علمًا، وأنَّه علم ما كان وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

المرتبة الثَّانية: الإيمان بالكتابة وأنَّ كلَّ شيء كتب في اللَّوح المحفوظ. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:٧٠].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص P قال رسول الله ﷺ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ**». رواه مسلم[(١)].

وعن عبادة بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمْ، قَالَ لَهُ: اكْتُبْ فَجَرَى بِتِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

رواه أحمد والتِّرمذيُّ[١].

المرتبة الثَّالثة: الإيمان بالمشيئة وأنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التَّكوير:٢٩].

المرتبة الرابعة: الإيمان بالإيجاد والخلق وأنَّ الموجد والخالق للأشياء كلِّها هو الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزُّمر:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصَّافَّات:٩٦].

فهذه أصول الإيمان الَّتِي جاءت في كتاب الله وسُنَّة نبيِّنه ﷺ، وعليها قيام دين الله، وتفاصيل هذه الأصول مُبَيَّنة في الكتاب والسُّنَّة، فإذا ترسَّخت في القلب عظم صلاحه وطاب وزكا، وهي غذاء القلوب وقوَّتها وصلاحها وقوامها، والله المسؤول والمرجو وحده أن يزيِّننا بزينة الإيمان وأن يجعلنا هداة مهتدين.

---

(١) رواه أحمد (٢٢٠٧٥)، والتِّرمذيُّ (٢١٥٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.